الإسلام هو البديل...

تارودانت. ٢٤ نيسان/أبريل ١٩٩١

تأتي أخبار غير محتملة من الولايات المتحدة الأمريكية بأن فرانسيس فوكوياما *Francis Fukuyama*، رئيس هيئة سياسة تخطيط وزارة الخارجية، أعلن "نهاية التاريخ". ويبدو واضحاً أن سقوط "الشيوعية" العالمية قد مكّنه من استنتاج النتيجة الهائلة بأن "طريقة الحياة الأمريكية" لا بدَّ أن تنتشر وتصبح هي السائدة في العالم. فبعد أن أزيل "العالم الثاني" من الطريق، فلا بدَّ للدول النامية في "دول العالم الثالث" من قبول "العالم الأول" على أنه هو النموذج الإجباري [اللااتباع]. وهذا ما يمكن أن يسمى "النصر" في أحسن أحواله (أو أسوئها).

واتباعاً لعادة جيدة من عادات الخدمة الخارجية الألمانية، فقد كنا نقضي أول عطلة لنا في الدولة المضيفة لنا؛ المغرب. وها هي سيارتنا الفولكسواجن - جولف تأخذنا في رحلة ذهاب وعودة غريبة فريدة، مبتدئين من منتجع التزلج (١) "إفرين"، جنوب فاس، خلال سلسلة جبال الأطلس العالية والمتوسطة، وإلى الرشيدية، وعرفض، وريساني، وتنجيرت، وأزازات، وأغادير، وانتهاء بتزنيت على كتف الصحراء الغربية.

وفي الفندق التاريخي، باليس سلام تارودانت، عاصمة منطقة سوسي الخصيبة (إذا أمطرت السماء)، تنبهت فجأة أن عليَّ أن أردَّ على مقال فوكوياما بأن أشير إلى أن قضية الصراع بين الشرق - والغرب قد حلَّ محلها ببساطة قضية الصراع بين الشمال - والجنوب، وهذا دليل على حقيقة أنه لا يزال هناك بديلٌ عن الطريقة الغربية للحياة، وهو: "الإسلام".

وفي هذه الأثناء، يجب عليَّ أن أحلل العديد من الأنواع الرئيسة للتمييز العنصري ضد الإسلام، والتي تعمقت جذورها جداً في العقلية الغربية، مخصصاً فصلاً لكل قضية من القضايا الشبيهة بما يلي: الحرب المقدسة، القدرية، الظلامية أو النزعة إلى إعاقة التقدم وانتشار المعرفة، التعصب أو عدم التسامح، الحجاب، وقانون العقوبات الإسلامية.

وقد عدنا في اليوم التالي إلى الرباط، قبل إتمام الرحلة، كي أتمكن من البدء بتنظيم الكتاب وصياغة أفكاري. وبعد ثلاثة وعشرين يوماً أصبحت مخطوطة الكتاب جاهزة، ما عدا الفهرس. وأخيراً، وبعد شهرين من ذاك التاريخ، قبلت دار النشر المرموقة يوجين ديدريشز *Eugen Diederichs* في ميونيخ وافقت على نشر الكتاب في برنامج منشوراتها في الخريف. وسمي هذا الكتاب: "الإسلام: البديل".

أقدم مدينة في العالم؟

دمشق - ١٠ شباط/فبراير ١٩٩٢

تدعي دمشق، كما هي حال حلب، والريحة، إنها هي أقدم مدينة في العالم. ومع ذلك، فإن دمشق، وهي عاصمة الثقافة في الشرق الأدنى، تملك ما تقدمه، وبكل تأكيد، أكثر من "الأبدية". وتمتاز اللهجة العربية التي يتكلمها الناس هنا [في دمشق] بنكهة خاصة، فهي ذات ظلٍّ وجمال أخّاذ؛ مما حدا بأستاذ الشعر الموسيقي الألماني راينر ماريا ريلك *Rainer Maria Rilke*، أن يؤخذ بسحرها وجمالها دونما أدنى حاجة لأن يفهمها!... ومع ذلك، فإن أمراً واحداً لا يقبل الجدل هناك، وهو أن المنطقة بين الفرات ودجلة، والبحر الأبيض المتوسط، كانا مهد الحضارة البشرية. (وللتأكد من هذا الموضوع يكفي أن تزور المتحف الوطني المحلي).

فالطريق المستقيم، وهو بطول كيلومترين، الذي يخترق المدينة القديمة، والذي لا يزال موجوداً، كما ورد وصفه في "أعمال الرسل". كما تذكرنا هذه المدينة بالقديس بولس، والذي اعتنق النصرانية حوالي السنة الثالثة والثلاثين بعد الميلاد، ثم أصبح بنصرانيته المتشددة المغالية المتطرفة المؤسس الحقيقي للنصرانية.

كما أن دمشق هي إحدى الأمكنة التي وصفها دليل ميشلان *Michelin Guide* على أنها: "مدينة تستحق الرحلة إليها". إلا أنني أتيت إلى هنا لسبب واحد وهو أني: أردت أن أصلي في مسجد بني أمية الرائع [المسجد الأموي]. وهو المسجد الجامع الذي كانت تُقام فيه صلاة الجمعة للخلفاء الأمويين الأربعة عشر الذين أقاموا هنا حتى عام ٧٥٠، وهذا

المسجد، بعد المسجد الحرام في مكة، ومسجد النبي ﷺ في المدينة، وبعد مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس، فإنه بكل تأكيد، الجوهرة الخامسة النفيسة المحترمة للتراث المعماري الإسلامي. ففسيفساؤه الملونة التي توضح النباتات، وإلى جانب ذلك، الهندسة المعمارية المدنية المعاصرة، هي جزء لا يتجزأ من التراث الحضاري للبشرية.

وبما أن الشخص الوحيد الذي سلم من هذه السلالة الحاكمة (بعد الثورة العباسية) استطاع تأسيس الخلافة الأندلسية في قرطبة، فليس بوسع المرء أن يحلَّ الخيوط أو الألغاز لتاريخ هذه الدولة دون العودة، عاجلاً أم آجلاً، إلى دمشق. وقد عاش الأمير [القائد] الكردي الفذُّ، صلاح الدِّين الأيوبي، والذي كان المناوئ الأكبر للحملات الصليبية، بل وكان علماً معروفاً في عصره، عاش أيضاً في دمشق عشر سنوات من عمره، ودُفِن خارج المسجد الأموي الكبير. كما أن دفن يوحنا المعمدان داخل حرم هذا المسجد الكبير هو شذوذٌ متجذِّرٌ في الماضي النصراني للمبنى. ومع ذلك، فليس للمسجد ماضٍ فقط، بل إنه يتمتع بمستقبل: فحسب بعض المعتقدات الإسلامية والإيمان بالأخرويات، فسيعود [سيدنا] عيسى عليه السلام، مرة أخرى إلى هنا [إلى دمشق] في نهاية الزمان، وبالتحديد على المنارة الجنوبية الشرقية...

واليوم، كانت درجة الحرارة الخارجية متجمدة - ٥ْ مئوية تحت الصفر، وفي طريقنا إلى مطار دمشق، نشاهد منظراً ساحراً، إلى درجة السخف: التلال الرملية تغطيها الثلوج، وكذلك أيضاً المسجد الأموي. لقد كانت أرض المسجد في الحقيقة زلقةً جداً حتى إني كدت أمشي على "الأربعة" أثناء ذهابي لأداء الصلاة!

وقد زرت في اليوم التالي ضريح محي الدّين بن عربي، الشيخ الأندلسي الأكبر الذي توفي هنا [في دمشق] عام ١٢٤٠، والذي يُعَدُّ أكبر

شيخ من مشايخ الصوفية، حتى من قبل بعض نساك النصارى " الباطنيين". ويدهش المرء عندما يرى أن المنطقة التي دُفن فيها ابن عربي في الطرف الشمالي من مدينة دمشق، بأنها ذات روح عثمانية موغلة جداً، وكأنها قطعة نقلت من اسطنبول وجيء بها إلى دمشق، وهي الجزيرة "الثيوصوفية" [التأمل الفلسفي] للسلام.

وأما بالنسبة لي، فليس لدي أدنى شك، أن الإضاءات الغنوطسية لابن عربي هي غير مؤكدة، بل ولا يمكن تأكيدها، وأنه لم يتمسح بفكرة "وحدة الوجود" فحسب، كنتيجة منطقية لمعتقداته الأفلاطونية الجديدة لوحدة الوجود (وحدة المخلوقات والكائنات جميعها)". وهل كان القرآن الكريم بالنسبة لابن عربي نصاً أم حجةً، فمن يمكن أن يقول هذا؟

إنني لا أنكر التعليل الثقافي الحضاري، إلا أن إمكانية الإجابة على السؤال ما إذا كان الله "حالاً" أم "فوق الوجود المادي"، وما إذا كان "واحداً" أم "كلهم". ومع هذا، فيجب على المسلم أن يتجنب إعطاء أية إجابات خاصة أو حتمية على مثل هذه الأسئلة، وأن يعتقد أن الله سبحانه وتعالى "هو أقرب إلينا من حبل الوريد"، وفي الوقت ذاته، ليس كمثله شيء. إن أي أسلوب آخر قد يوقع الإنسان في مخاطر الاعتقاد *theomorphic* للبشر، والذي هو بدرجة السوء ذاتها *antheomorphic pan* - لله.

وقد شاهدت من غرفتي في الفندق عدداً من الصلبان المضاءة على واجهات الكنائس في كل مكان في المدينة. ويقودني هذا إلى أن أفكر بعدد المآذن والمنارات الإسلامية الموجودة في الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا التي تُمْنَع من إعلان "الأذان" والنداء للصلاة.

ملخص إعدامي من قبل الإعلام...

الرباط. ١٥ آذار/مارس ١٩٩٢

أعلنت دار النشر المرموقة يوجين ديدريشز *Eugen Diederichs* في ميونيخ إعلاناً مبكراً عن نشر كتاب: "الإسلام: البديل" إلى كل من مكتباتها والإعلام. وقد أثار هذا مقاومة فورية، وذلك قبل أن يصدر الكتاب بزمن لا بأس به، بل لم يقصر حتى مندوبي مبيعات الكتب المتنقلين من المساهمة في هذه المقاومة.

كان بإمكاني الآن أن أقرأ في الصحافة الألمانية، التي أذكت أوارها وزادت وقودها الحركة النسائية اليسارية، أنني أدافع عن "تعدد الزوجات"، و"رجم الزناة"، و"ضرب النساء"، وقد كِيلت كل هذه الاتهامات الباطلة دون أي دليل، ولهذا، لم يكن الكتاب على الإطلاق "السفير" إلى البلد النصراني. (أي واحد يا ترى؟). بل لقد بدأ حتى أعضاء البرلمان من الحزب الاشتراكي الديموقراطي، بدؤوا مناقشة ما إذا كان يجب أن أُقَال من عملي.

وكانت المشكلة الأساسية في الدفاع أن الكتاب الذي دافعت فيه عن هذه الاتهامات السخيفة لم يتوفر في السوق إلا في السادس من شهر نيسان/أبريل، وبالتحديد، بعد ثلاثة أسابيع من بدء الحملة الإعلامية وانتشارها.

بل أصبحت أقرأ في الصحافة أيضاً أنني دفعت واحداً من أعضاء السفارة إلى الانتحار، وأنني أجبرت كافة الموظفات في سفارتنا في الرباط

على ارتداء الحجاب على وجوههن وأجسامهن. ولا شك أن هذه الاتهامات هي خطيرة وجادة، حتى لو كانت محض افتراءات كاذبة.

لقد كنت رجل إعلام شخصياً، إذ شغلت منصب مدير الإعلام والمعلومات في حلف شمال الأطلسي بين ١٩٨٣ ـ ١٩٨٧، حيث تعاملت مع العديد من الصحفيين المتخصصين في قضايا الدفاع العسكري والاستراتيجية النووية. وبما أن هؤلاء كانوا "النخبة العالمية"، فربما بقيت بريئاً من احتمال الإصابة بـ: "الصحافة الصفراء"، التي أتعرض لها حالياً في ألمانيا.

وحسبما نراه من خلفية تشويه سمعة الإسلام بشكل مستمر فيما يتعلق بما فعله سلمان رشدي، وبما فعلته حرب الخليج، فقد أصبحت بعض محطات التلفزة، وبعض الصحافة المطبوعة (وخاصة الصحيفة المصغرة "بيلد ام سونتاج *Bild am Sonntag*") مشتطة جداً في ادعاءاتها التي لا دليل عندها عليها على الإطلاق، حيث كنت أنا الضحية، وأن "الإسلام" أمر غير دستوري، وبالتالي فهم يريدون رسم خط بين "الغالبية الجيدة" و"الأقلية الرديئة"، وهم المسلمون. وتسمى هذه الطريقة بالألمانية (وهي أساساً فاشيستية) "أوسجرينزن" *ausgrenzen* (وضع سياج خارجي)، (*out - fencing*) وأما الإعلام الذي ينخرط في هذه العملية فيعرف باسم: *Hinrichtungsmedien* (الإعلام الإعدامي).

إن من السهل أن "نبرهن" بالطريقة ذاتها (ولكن بكثير من التعليلات) أن كلاً من اليهودية والنصرانية هما أيضاً "غير دستوريين". أليس الإنجيل، وليس القرآن الكريم هو الذي دعا أولاً إلى رجم الزناة. أليس القرآن الكريم، وليس الإنجيل (العهد الجديد) هو الذي يحتوي على مقاطع وآيات تتمرد على من يشوه سمعة النساء؟

لقد اشتدت حدة الهجمات الإعلامية جداً حتى بدأت أشعر وكأنني "خارج عن القانون". وبالطبع، لم يكن مكتب الشؤون الخارجية في بون

ليسمح لي بإجراء دفاعي الخاص ضد الصحافة، وأنا سفير لهم، بل ولم يكن ليتدخل نيابة عني، اللهم إلا في الآونة الأخيرة جداً حين أصبح *corpus delicti* متوفراً في الأسواق. إنها الأحجية من طراز ٢٢، اللهم إذا كان هناك ما يمكن أن يكون كذلك!

فعندما أصبح باستطاعة مكتب الخارجية أن يقرأ كتاب: "الإسلام: البديل"، بفضل النسخة المبكرة التي استطاع الناشر أن يعدها بسرعة، استطاع أن يجد أن الكتاب موضوعي ولا غبار ولا اعتراض عليه. وقد "بُرِّئْتُ" بإصدار إعلان صحفي، والذي لم يشأ الإعلام تحليله والتعليق عليه، واستمريت في أداء عملي كسفير لألمانيا إلى المملكة المغربية.

لم يقدِّمْ أحد أية اعتذارات، ولم يقِّيمْ أحدٌ مدى الحزن والألم لأفراد عائلتي. بل إنني أنا شخصياً، في حقيقة الأمر، كنت أقل المتأثرين لأن الحملة الإعلامية بأسرها حدثت في شهر رمضان، وقد كان الصيام عوناً لي على الابتعاد عن الأمور الثانوية في الأهمية، كالمهنة والمكانة والاحترام.

وأما بالنسبة للجالية المسلمة في ألمانيا، فإن هذه الحادثة كانت، وستبقى، ذات أثر كبير. لقد كانت هذه الحادثة بالفعل محاولة واضحة لتحجيم المسلمين ووضعهم في المكان المحدد لهم، ولا داعي لأن نذكر هنا أن "فتوى الإعلام" وقناعتهم هي أنهم يتابعون "الإسلام"، وهو "غير صحيح سياسياً". ترى هل يكون الأمر أن هناك توجهاً أن الألمان لم يعودوا قادرين، ولا مسموح لهم، أن يخوضوا في أمور "ضد اليهود" و"ضد الساميَّة"، وهم الآن قد بدؤوا الخوض في أمور لتشويه سمعة "العرب" و"ضد السامية"، وأن المسلمين، من حيث الخلفيتان الدينية والعرقية، أصبحوا هم "كبش الفداء" الجديد؟

دروس المساء [الدروس الحسنية]

الرباط. ١٩ آذار/مارس ١٩٩٢

ما برحت أجلس متربعاً على الأرض في القصر الملكي بالرباط، سنة بعد سنة، ومساء بعد مساء، خلال معظم أيام شهر رمضان المبارك، حيث أستمع لحوالي ساعتين من الزمان قبل أن يحين موعد الإفطار، مصغياً لما يقوله العلماء المسلمون من مختلف أرجاء العالم الإسلامي. وكذلك يفعل كافة أعضاء مجلس الوزراء المغربي، ورئيس أركان الجيش المغربي، وجميع العاملين في السلك الدبلوماسي من المسلمين. بل، لا أعدو الحقيقة إذا قلت، بما أن هذا الحدث ينقل حياً على القنوات المتلفزة، فإن الشعب المغربي بأكمله يقضي الساعات الأخيرة معاً قبل أن يحين موعد الإفطار في رمضان.

وتستمر قراءة القرآن الكريم من قبل قُرَّاء أكفاء حتى موعد وصول الملك الحسن الثاني ومرافقيه من الأمراء، وغالباً ما يقدِّم هذه التلاوات ناشئون من الشباب من جنوب شرق آسيا. ويقدِّم هؤلاء كلام الله بطريقة فنية رائعة، وبقوة مؤثرة جداً تخيم على القلب وتأسر النفس البشرية بمعانيها وأدائها، سواء أفهم المستمع معاني كلام الله، أم لم يستطع أن يفهمه [لعدم مقدرته اللغوية].

ويجب على المرء أن يفهم كلام المتحدثين من العلماء، حتى ولو لم يعالج هؤلاء الموضوعات التي تتعلق بأحداث الساعة من منبرهم الذي يتكلمون منه. ويعتمد هذا، في مثل حالتي، على ما إذا كانوا يتكلمون اللغة العربية الفصحى، كما هي الحال حين يتكلم علماء فلسطين،

ولبنان، والأردن، وسورية، أو حين يتكلمون بلهجاتهم المحلية الدارجة، كما يفعل علماء شمال إفريقية. وقد عبَّر مدرسي السوري الذي يدرسني العربية عن هذا أفضل تعبير حيث قال: "لغة القرآن الكريم العربية هي "مقروءة" فقط، والعربية الفصحى "مكتوبة"، والعامية العربية هي "منطوقة" فقط." ومهما كان الأمر، فإنه عمل بطولي، فذ، أن تبقى اللغة العربية منذ أكثر من ألف وأربعمئة عام، "لغة القرآن الكريم"، وقد أصبحت مفردات القرآن الكريم لغة المختصين. ونحن، بالمقابل، لا نستطيع قراءة لغة تشاوسر *Chaucer* دون مساعدة.

إن ترتيب هذه المحاضرات التي تسمى "الدروس الحسنية" هو أمر رمزي. ويجلس الملك، مثل أي واحد منا، على الأرض، يستمع مصغياً لما يقوله "الأستاذ" الجالس على الكرسي العالي، وناظراً بعينيه إليه. وهكذا، فإن "الحكمة" توضع بشكل رمزي فوق "القوة" [أو السلطة]. ونسافر بذاكرتنا ونحن جلوسٌ هناك في تاريخ التعليم الإسلامي - إلى جامعة الأزهر في القاهرة، والزيتونة في تونس، والقرويين في فاس. والحق يقال، يجلس الطلاب على الأرض، كما نجلس نحن هنا، ويحيطون بأستاذهم الذي يستند إلى أسطوانة في المسجد ويشرح بإسهاب مسألة فقهية بمناقشتها أولاً بناء على ما ورد في القرآن الكريم، ثم ما جاء في سنة رسول الله ﷺ، وأخيراً، بالقياس على ما يجده في الفقه الإسلامي.

ويحدث أن يدلي الملك بمداخلاتٍ في الموضوع، كما فعل عندما سأل المفتي العام لمصر، الشيخ محمد [سيد] الطنطاوي، (والذي يشغل منصب شيخ الأزهر حالياً)، ولم يطلبْ منه "اختصار" محاضرته، بل "التوسع" فيها بالمجيء في اليوم التالي.

ويدعو كثير من السفراء المسلمين، بعد هذه المحاضرات، بالدور، كثيراً من المشاركين في هذه المحاضرات، لتناول الإفطار في بيوتهم.

وكان اليوم "دوري". فبعد أذان المغرب، قدمنا الماء، والعصير، وعصير اللوز، و"تميرات" للمدعوين، ثم أدينا صلاة "المغرب" جماعة في فناء الحديقة. وقد قبل صاحب السعادة السكرتير العام لحزب الاستقلال التاريخي، مهاتير محمد بوكيتا *Maitre Muhammad Boucetta* أن يكون إمامنا في الصلاة.

وقد اشتمل العشاء على شوربة الفريكة، وهو حساء غني لا بد منه في رمضان [هنا]، ومشاوي لحم الغنم، وبقلاوة، ومهلبية للحلوى. وقد التهمها الجميع بسرعة كبيرة كي يعود الجميع إلى أهليهم وبيوتهم قبل صلاة "العشاء".

وإنني أعجب، هل سيسمح الزمان مرة أخرى أن يأتي الوزراء، والمستشارون الملكيون، وزعماء الأحزاب إلى منزل سفير ألماني ليؤدوا صلاة فيه؟ (وبما أني مسلمٌ لا يجوز لي "المراهنة"، وليس مطلوباً مني أن أفصح عن "المراهنة" التي كنت سأضعها!).

الحج كمسألة لوجستية...

الرباط. نيسان/أبريل ١٩٩٢

هناك حكمة عسكرية ألمانية قديمة تقول بأن: "يمكن اختصار أية مشكلة إلى مسألة "لوجستية"، بحيث يمكن إدارتها. وأما فيما يتعلق بمسألة "الحج"، فإن بعض هذه المشاكل التي تواجهنا فيه هي: التلقيح ضد الحمى الشوكية، والحصول على تأشيرة الحج من السفارة السعودية، وحجز تذاكر السفر لرحلة الحج (والتنافس والتزاحم مع ٥٠٠٠٠ خمسين ألف حاج مغربي يحاولون أن يفعلوا الشيء ذاته في الوقت ذاته).

كما يجب على المرء أن يستعد لتأمين لباس الحج "الإحرام": منشفتان بيضاوان [أو قطعتان من القماش] غير مخيطتين، متساويتا القياس (متر × ١٨٠ سم)، ونعالٌ غير مخيط أيضاً، وحزامٌ جلدي غير مخيطٍ أيضاً ذو ثلاث حجرات، (بحيث يستوعب كلاً من الهوية، وتذاكر السفر، والأدوية اللازمة، ونقود النفقة)، وربما مظلة بيضاء، قد تكون أداة لإنقاذ الحياة، وجرابٌ غير مخيط أيضاً لحمل القرآن الكريم، ودفتر للكتابة، وعلبة بيبسي كولا احتياطية، وبعض المأكولات المجففة). واقترح طبيبنا، الملمُّ جداً بالمشاكل الصحية التي يتعرض لها الحجاج، أن نأخذ معنا بعض الأدوية المضادة للحمى، والغثيان [القيء]، والإسهال، وتسلخ ما بين أصابع القدمين [أو التسليخ بشكل عام].

إلا أن هذا كله هو فقط "الأغراض" المادية. وبما أن الحج هو أمر ديني تعبدي، فلا بد للحاج أن يتثقف ويلم بالمظاهر الروحية للحج وأركانه، والتي يعود تاريخ معظمها إلى دين التوحيد؛ الحنيفية السمحة، دين أبينا

إبراهيم عليه السلام. وإلا، فسيخاطر الحاج بأن يتعرض لمخاطر جسيمة بسبب التعب والإرهاق والإجهاد الشديد الذي يسببه المناخ القاسي والصعب جداً والزحام البشري الشديد؛ لذا، فقد قرأت كل ما استطعت أن تقع يدي عليه من المنشورات والكتب، وسألت أصدقائي الذين أدوا مناسك الحج آلاف الأسئلة عن الحج وتجربتهم فيه. لقد أردت من كل قلبي أن أحج، إذ إنني أشعر أن الحياة ناقصة تماماً من دونه. ومع ذلك، فقد كنت خائفاً [متردداً] بعض الشيء.

ولم تتحسن الحال عندما زارني أصدقائي وجيراني ليودعوني قبل سفري إلى الحج. بل، في حقيقة الأمر، إن الناس هنا في المغرب يذكرون تماماً كم كانت الأخطار التي تحيق برحلة الحج التي تبلغ ١٢٠٠٠ اثني عشر ألف كيلومتر ذهاباً وإياباً إلى مكة والمناسك، وذلك قبل عصر الطيارات النفاثة، فقد كانت تستغرق حوالي سنة من الزمن، وغالباً ما لا يعود "الحاج" من رحلته تلك.

الصبر عند الشدائد والملمات...

مطار محمد الخامس. الدار البيضاء ٢٨ أيار/مايو ١٩٩٢

انتظرنا، دون جدوى، طيلة الليل، وصول الطائرة النفاثة السعودية الضخمة. ولكن، كما هو متوقع من الحاج، وواجبٌ عليه: ألا يشكو أو يتذمر، وألا يعترض. وقد تجمعنا جميعاً نصلي قيام الليل، وصلاة الفجر على أرض المطار الرخامية الصلبة، دون أن نشكو أو نعترض.

وأخيراً، ففي الساعة ٥:٣٧ صباحاً، بعد عشر ساعات تأخير، غادرنا المطار إلى جدة. وبدلاً من الاستماع إلى "الموسيقى" المألوفة، استرحنا واستمتعنا بالاستماع إلى آيات القرآن الكريم تتلى علينا من خلال مكبرات الصوت.

كان الركاب الذين جلسوا إلى جانبي في الطائرة مسلمين من السينغال، من أتقى الأتقياء. وكان من بينهم رجل وقورٌ محترم اسمه مختار ديوري *Mokhtar Diouri*، أحد أبناء الرئيس عبده ضيوف.

وقبل الدخول في المجال الجوي لمكة المكرمة [الميقات] ذكّرنا قائد الطائرة بضرورة إعادة نيتنا لأداء مناسك الحج، وارتداء ملابس الإحرام، وأداء ركعتين في حال جلوسنا في مقاعدنا. ولقد تحول ركاب الطائرة بأكملها، خلال زمن يسير، إلى اللون الأبيض.

في "روضة" المسجد النبوي...

المدينة المنورة. ١-٣ حزيران/يونيو ١٩٩٢

لقد تمت توسعة المسجد النبوي في المدينة المنورة مرة تلو الأخرى حتى أنه لم يعد يقتصر، كما كان الحال عام ١٩٨٢، على جزء من المدينة، بل توسع اليوم ليشمل منطقة كبيرة. ويحيط بالمسجد النبوي إحدى عشرة مئذنة (علماً بأنه تمَّ التخطيط أن يكون هناك أربع عشرة مئذنة)، ويستوعب المسجد النبوي حالياً لعدد من المصلين يبلغ ٤٨٠٠٠٠ شخص في وقت واحد. ومع أن المسجد مفتوح من الجوانب، وجزء منه دون سقف، فلا تزال درجة الحرارة معتدلة فيه. وقد استطاعت شركة هندسية إسلامية ألمانية قريباً من شتوتغارت بناء مظلات عملاقة من المعدن الخفيف بطريقة عبقرية فذة تنفتح عندما تظهر الشمس خلال ساعات النهار، وتغلق في ساعات المساء، بينما يتم دوران المياه الباردة للتبريد تحت الأرضية التي يمشي المصلون عليها.

وعندما اتجه مئات الآلاف من المصلين، عند وقت الصلاة، من الحجاج وغير الحجاج، كنت أنا والشيخ النحناح الجزائري متجهين أيضاً إلى المسجد، ولكن ليس على الأقدام، بل في سيارة أجرة مكيفة. وصدِّقْ أو لا تُصدِّقْ، لقد تنحى الناس عن طريق السيارة بسلام وهدوء دون أن يحملقوا بمن كان داخل السيارة، أو يضربوا بأيديهم على هيكلها الخارجي وسقفها، كما هي الحال في أي ظروف أخرى. إن العاطفة الدينية الصادقة تكذِّبُ القوانين الاجتماعية للجماهير.

جلس إلى جانبي في المسجد موظف بنك باكستاني يعمل في البحرين، وعامل ضيافة تركي من بوكوم *Buchum* بألمانيا. وهكذا، فقد أثبتنا نحن الثلاثة *in nuce* عالمية هذا الدين العظيم؛ الإسلام.

ولم نستطع أن نزور القسم التاريخي الصغير في المسجد: "الروضة" النبوية الشريفة، إلا حوالي منتصف الليل، عندما فرغ المسجد من أكثر المصلين. وقد كانت هذه الروضة الشريفة، خلال عهد النبي ﷺ تحيط بها بيوت أزواجه؛ أمهات المؤمنين. وقد دفن حبيبنا ﷺ في حجرة أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، وقد دُفِنَ معه وزيراه، وصاحباه الكريمان، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، رضي الله عنهما. وهنا، حيث عاش الحبيب ﷺ، وعمل، وخطب، ووعظ، وأحبَّ، ومات، نجد كثيراً من الحجاج يُجهشون بالبكاء، ولا يستطيعون تمالك أنفسهم على الإطلاق. ألم يحلموا سنواتٍ طويلة أن يأتوا ليزوروا الرجل الذي غيرتْ رسالته حياتهم؟

وعلى خلاف ما كانت عليه الحال عام ١٩٨٢، فقد أصبح المسجد النبوي الآن متاخماً تماماً لحدود جدار مقبرة البقيع؛ المقبرة الإسلامية التاريخية، بل المقبرة التي تضم عدداً كبيراً من آله الكرام، رضي الله عنهم وأرضاهم، وأصحابه الغرِّ الميامين، رضي الله عنهم (بما في ذلك: عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وفاطمة الزهراء، رضي الله عنها، وعائشة الصديقة بنت الصديق؛ أم المؤمنين، رضي الله عنها وأرضاها). وقد درست معالم هؤلاء الصحابة والآل الكرام بطريقة لا يعرف مواقعهم فيها إلا الخبراء، حيث لا يمكن تعريف قبور الأفراد في هذه البلاد. ولا شك أن هذه طريقة جوهرية غير مسبوقة لإزالة عبادة الأشخاص وتقديسهم من قلوب الناس! وقد لاحظ الشيخ النحناح معي غضب جماعة كبيرة من الإيرانيين من هذه الحالة. إلا أن الأمر لم يصل بهم إلى حد "الانفجار" و"الثورة". كان الصبر وحب السلام أهم صفتين في الحج، وأي مخالفة كانت كفيلة بأن تبطل "الحج"، لو يقول الله تعالى في كتابه الكريم،

البقــرة: ١٩٧: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾].

كما أن السعوديين يتميزون باتباع الطريقة الجوهرية ذاتها وتجاهل الأمور العاطفية من نظرتهم الوهابية إلى الأمور فيما يتعلق بالإرث المعماري، مهما كان الأمر صغيراً، وقد شمل هذا كلاً من مسجد "قباء" ومسجد "القبلتين". فقد زرتهما أنا وزوجتي عام ١٩٨٢ وكانا لا يزالان على وضعهما القديم، إلا أنهما استبدلا مؤخراً ببنائين حديثين أكبر بكثير مما كانا عليه في السابق. إنه، دون شك، إحساسٌ مدهشٌ بترتيب الأولويات!

وقد قضينا، أنا والشيخ النحناح، عدة ساعات بعد صلاة العشاء نحدِّث الطلبة الجزائريين. فهل يستطيع أحد أن "يحزر" الموضوع الذي تحدثنا عنه؟

"الحجُّ" ليس هو "العمرة"...

مكة المكرمة ٥ . ٩ حزيران/يونيو ١٩٩٢

لقد كان يراودني شوقٌ عظيم لمكة المكرمة، منذ أن وطئت قدمي (اليمنى) ثرى المسجد الحرام فيها للمرة الأولى. لا زلت أشعر بالحنين إلى الجو العبق الذي يميز مكة المكرمة عن غيرها، حيث يشعر المرء بتركيزه على ربه، وخالقه، وبارئه، ومصوره؛ الله العزيز الحميد. (ولا مقارنة بين مكة المكرمة وأي مكان مقدس آخر للعبادة عند النصارى، إذ إن ذلك مضلِّلٌ، لا محالة. مكة المكرمة مكانٌ آخر...).

لقد وصلنا إلى الحرم الشريف هذه المرة من خلال أحد أنفاق المرور الكثيرة التي فتحت في التلال والجبال الصخرية المحيطة بمكة المكرمة، مما يجعل تلك الجبال تبدو للناظر وكأنها "قطعة" من "الجبن السويسري" [الطري]. وقد خرجنا من النفق لنجد أنفسنا وجهاً لوجه، في مواجهة "مسجد المساجد". كانت مفاجأة جميلة دو شك: أن يشعر المرء فجأة أنه انتقل إلى "بيته".

وهكذا، فقد طفت ثانيةً سبعة أشواط بالبيت العتيق، ومرة ثانية أيضاً، سعيت سبعة أشواط بين الصفا والمروة. والفارق الوحيد هذه المرة أن الفصل لم يكن "الشتاء"، بل كان "الصيف" حيث بلغ متوسط درجة الحرارة ٤٤ْ مئوية، وأني لم أكن واحداً من عشرة آلاف، بل كنت واحداً من مليوني حاجٍّ إلى بيت الله.

كان الزحام شديداً جداً إلى درجة استحالة إمكانية استخدام "المظلة" للاحتماء، ولو قليلاً، من لفح حرارة الشمس القاسية. وكانت هذه

هي النقطة الحرجة، إذ يحتاج الحاجُّ ساعتين على الأقل لأداء مناسك الطواف والسعي، بل مرَّتْ بي أوقات لم أكن لأستطيع خلالها التحكم حتى بحركتي الشخصية، حيث كنت كقطرة من الماء في موجة بشرية عارمة، لا تستطيع الحراك. ولقد شعرت بسعادة غامرة أنني تعرفت على مواقع هذه المناسك خلال رحلة "العمرة". إلا أنه، عند بذل هذا المجهود العضوي الكبير، يصعب على المرء أن يعي تماماً "الأبعاد الروحية" لما يفعله هو والآخرون من حوله.

وقد حاولت الفرار من الزحام في المرة التالية بأن أطوف حول الكعبة المشرفة من الدور الثاني، والذي يقع على سطح مسقفات الحرم المكي الشريف، حتى ولو كانت المسافة التي سأمشيها أكبر بكثير من المسافة التي أمشيها وأنا أطوف حول الكعبة المشرفة تماماً على الأرض. إلا أن الأرض كانت تغلي ملتهبةً من شدة الحرارة في الطابق الثاني، وبعد أن بدأت أمشي كـ: "الدب الراقص"، كان لابد لي أن أتراجع عن هذه الخطة وأتركها.

وليس مستغرباً، ولا مفاجئاً، أن نرى بعض الضحايا والوفيات في مثل هذه الأحوال، وفي مثل هذا الزحام والأعداد الهائلة من البشر من الحجيج، وبخاصة ممن يعانون من "ضربات الشمس"، و"الأزمات القلبية". وكنا نُدْعَى للصلاة على الأموات بعد كل صلاة من الصلوات المكتوبة لنصلي على الحجاج الذين اخْتَرَمَتْهُم المنون بعد الصلاة الفائتة. وكان من المحتمل جداً (وليس مخاطرة) أن أكون "واحداً" من أولئك الأموات.

وكنت أثناء طوافي حول الكعبة المشرفة أتضرع إلى الله وأتوجه إليه قائلاً: "اللهم إنا نسألك حق المعرفة بك في كل وقت وفي كل مكان". وقد أصبح هذا الدعاء موضوع دعائي طيلة فترة الحج.

عرفات...

منى/عرفات/مزدلفة/منى/مكة. ١٠. ١١ حزيران/يونيو ١٩٩٢

يستعد الحجيج في ليلة التاسع من ذي الحجة، يوم وقفة عرفة، للوقوف في عرفات، إذ إن "الحجّ عرفة"، فمن فاته "الوقوف" بعرفة، فاته "الحج" كله. فلا عجب إذن أن يشعر الجميع بشيء من الارتباك والقلق. نسألك يا ربنا أن تيسر أمورنا ولا تعسر منها شيئاً، يا رب العالمين.

وها نحن أخيراً، أكثر من مليوني حاج، يلتف كل منا بلباس أشبه ما يكون بـ: "الكفن" الأبيض، وكأننا نتوقع "يوم الحساب"، وكل منا يلبي: "لبيك اللهم لبيك!" من يا ترى في الغرب يستطيع أن يستوعب هذا التكريس وهذا التفاني في العبادة؟

ويخطب الخطيب عند صلاة الظهر الخطبة ذاتها [بمفهومها] التي خطبها النبي ﷺ في خطبة الوداع عند الصخرات، قريباً من جبل الرحمة في عرفات، عام ٦٣٢. كان معي في الخيمة مسلم أمريكي؛ أستاذ إحصاء اقتصادي في جامعة جورج واشنطن. وقد صلينا، وتأملنا، ثم صلينا، وتناقشنا، ثم صلينا، الساعة تلو الساعة.

كان الجو حاراً، وقد بلغت درجة الحرارة ٥٢° مئوية بحيث بدأ الهواء ذاته يهتز من شدة الحر. وقد احترق جلد أسفل قدمي عند ذهابي إلى الحمام لقضاء حاجتي، ولم أصطحب مظلتي!... إلا أنني لم ألحظ ذلك. ويبدو أن المتمرسين بأعباء الحج يدركون أنه العقبات والمصاعب الكبيرة أثناء الحج ليست سوى ترهات صغيرة فقط.

وبعد غروب الشمس، اتجهت ٥٠٠٠٠ خمسون ألف حافلة ركاب،

ووصلت إلى "مزدلفة"، في الوقت ذاته. وكانت النتيجة "زحام" عجيب جدير بأن يحتل مكاناً في كتاب "جينيس" للسجلات العالمية!... ففي مزدلفة، حيث نتوقف هناك لأداء صلاتي المغرب والعشاء، هي مكان على بعد (٧) سبعة كيلومترات فقط من عرفات، إلا أننا استغرقنا أربع ساعات حتى وصلنا إليها. وقد وصلناها منهكين، جائعين، ونكاد نهلك من العطش. وقد بدأنا قبل كل شيء، متناسين تعبنا وإرهاقنا وعطشنا، بأداء صلاتي المغرب والعشاء جمعاً وقصراً. ثم جمعنا عدداً من الحصى لرجم الشيطان في منى، ثم انطلقنا نحو منى. وفي منى، أدينا عبادة من أقدم العبادات، محاولين أن نعلن رفضنا الشخصي لكل ما هو شيطاني. ثم وجدنا أنفسنا خلال فترة وجيزة في مكة مرة أخرى لأداء صلاة الفجر، حيث تمكّنا من الوصول إلى مكة قبل الشروق بقليل.

لقد كنا متعبين منهكين إلى حدٍّ يفوق الوصف، إلا أننا كنا في حال من السعادة والسرور بقدرٍ يفوق الوصف أيضاً، وطفنا طواف الإفاضة، وهو الطواف قبل الأخير في "رحلة الحج"، وأدركنا بهذا أننا أصبحنا "حجاجاً". وتأملتُ الكعبة المشرفة، [زادها الله تشريفاً وتعظيماً]، هذا البيت الذي يعبر عن "التوحيد" بأجلى معانيه، ولا ينافسه فيه بيتٌ على وجه المعمورة، وقد تجلتْ الكعبة المشرفة ببهاء معماري أخاذ كامل ببساطة بنائها وليس بتعقيده أو زخرفته.

وبعد ستة وعشرين ساعة من الوقوف والعبادة والحركة المستمرة، وصلنا في نهاية المطاف إلى مخيم مؤقت للإقامة في منى ثلاثة أيام يهنئ بعضنا بعضاً، ويبارك بعضنا لبعض سائلين الله العلي القدير أن يقبل حجنا وعبادتنا. وعندما استيقظت كان الوقت قد حان لرجم "الشيطان" للمرة الثانية خلال الحج.

عيد الأضحى... في المكان ذاته

منى ١١.١٢ حزيران/يونيو ١٩٩١

يحتفل المسلمون حول العالم اليوم بعيد الأضحى، احتفالاً بما يجري الآن هنا في مكة وعرفة ومنى]، حيث سيقوم أكثر من ١٠٠٠٠ عشرة آلاف جزار بذبح أكثر من ٥٠٠٠٠٠ خمسمئة ألف رأس من الغنم داخل منى وحواليها. ويتم تجميد لحوم أكثر هذه الأضاحي فوراً، وسيبدأ شحنها غداً إلى المناطق المحتاجة في العالم الإسلامي كالصومال مثلاً. وعندما دفعت ثمن "الأضحية" التي يجب أن أذبحها طلبت منهم إرسال لحمها إلى البوسنة.

إن "الأضحية" أيضاً هي أمرٌ في منتهى درجات العبادة الرمزية. يفعلها الحاج احتفاء وتذكراً لما فعله إبراهيم الخليل عليه السلام عندما أبدى استعداده الفوري لذبح ابنه إسماعيل، امتثالاً لأمر الله، والاستعداد الفوري لنبي الله إسماعيل عليه السلام، وهو لا يزال غلاماً يافعاً، أن يُذْبَح فوراً، نزولاً عند أمر الله وامتثالاً له. غير أن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يحدث ذلك، وبهذا ألغى، وإلى الأبد، عادة تقديم "الأضحية" البشرية. لقد اختبر الحقُّ سبحانه وتعالى تسليم إبراهيم وابنه إسماعيل واستسلامهما لأمر الله وقضائه، وأبدله الحق سبحانه، وفداه بـ: "ذِبْحٍ" (كبشٍ) عظيم. ولهذا، فيجب علينا أن نتذكر، نحن الحجاج، أن نكون على استعداد دائماً أن نضحي بأغلى ما عندنا إذا اعترض استسلامنا وانقيادنا وتسليمنا لأمر الله سبحانه وتعالى. وعندها فقط تتكون لدينا المناعة الحقيقية ضد عبادة الأوثان والأصنام المعاصرة.

وفي طريقي لرمي الجمار للمرة الثالثة والأخيرة، مررت بمنى في

منتصف الليل. شاهدت الحجاج ينامون في الشوارع وعلى الأرصفة في كل مكان، وتركت كثير من الحافلات مكائنها تعمل طيلة فترة الوقوف لتؤمن شيئاً من الجو المعتدل نسبياً للحجاج الذين بقوا فيها. كان الدخان ينبعث من عوادم تلك الحافلات، وكانت مخلفات الطعام والفضلات تعبق الجو برائحة كريهة قوية مما جعلني أحاول أن أغطي أنفي بقطعة من القماش المبللة بالماء المعطر.

في تلك الحالة غير العادية، وكأن كل شخص من حولي يجيد "التركية"، توجَّهَ إليَّ حاجٌ تركِيٌّ بسؤالٍ لم أكن مستعداً للإجابة عنه: "أين الشيطان؟" ودون أن أنفجر ضاحكاً، أشرت إلى الطريق المؤدية إلى أقرب مواقع الشواخص الثلاثة التي تمثِّل الشيطان. قطعاً، لا يستطيع أحد أن يشير إلى موقع الشيطان ويحدده بدقة تامة في الأيام والمواقع العادية، أليس كذلك؟

وفي ثاني أيام العيد، دعاني الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود في قصر إقامته بمنى. ولفت نظري بين المدعوين الآخرين سلطان بروناي، وابن الرئيس الإيراني [الأسبق] رفسنجاني، ورئيس الحاكم الباكستانية، وأنيس منصور؛ الكاتب المصري المشهور المحنك. وهذا أيضاً يذكرنا بالحقيقة الهامة، سنةً بعد أخرى، بأن الحج إلى مكة هو أيضاً مؤتمر غير رسمي يلتقي فيه المفكرون والمثقفون والسياسيون في "جامعة" جوالة.

واتبع "الغداء الملكي" أحد الآداب الإسلامية المعروفة: أحاديث طويلة قبل أن تقدم مائدة الطعام، وأن يكون الكلام قليلاً مختصراً (وأن يكون تناول الطعام سريعاً) على المائدة، وأن يغادر المدعوون فور انتهائهم من الطعام. وهكذا، فخلافاً لما تعودنا عليه من عادات غربية، لم أنتظر أن "يرفع" الملك الطعام عن المائدة، بل على نقيض ذلك، غادرت المكان فور

الانتهاء من تناول قدرٍ كافٍ من الطعام. وهذه طريقة تترك، حتى الملك، وحيداً على مائدته، بعد أن يغادر آخر ضيف من ضيوفه.

وعند عودتي بالطائرة من جدة إلى الرباط بعد عدة أيام، قدَّم لي مضيف الطائرة العدد الأخير من مجلة التايم، وكان العنوان الرئيس فيه: "الإسلام: هل يجب أن يخاف العالم؟".

لو كان هناك حيتان...

بون. ١٩ تموز/يوليو ١٩٩٣

التقيت مصادفة بزميل قديم وعزيز قديم في مكتب [وزارة] الخارجية، الدكتور هانزجورج إيبف *Hansjorg Eiff*، آخر سفير لألماني في يوغسلافيا (قبل تمزقها). كلانا يعاني من إحباط خلال السنتين الماضيتين بسبب ما يسمى "العالم المتمدن"، الذي يُفتَرض أن يمثل الإنسانية، ويهتم بحقوق الإنسان، وهو يشاهد ما يحدث في البوسنة بسلبية تامة، ويرى كيف يتم تدميرها واغتيال سكانها المسلمين بمذابح جماعية لا إنسانية [ذبح النعاج].

وفي اعتقادي أنه كان يمكن الحيلولة دون حدوث هذه المأساة بأكملها لو أن بعض دول حلف شمال الأطلسي تدخلت بحزم لحسم الخلاف خلال الوقت المناسب، وحسب قواعد "إدارة الأزمات"، وطرق تصعيد الحلول التي غالباً ما يتم اتباعها أثناء تدريب الموظفين. كان بالإمكان "عزل" "المعتدي"، صاحب النزعة العدوانية، وإعطاؤه مهلة قصيرة جداً مهدداً بسحب كثير من المزايا التي يرفض التنازل عنها، إذ إنها تفوق ما يمكن أن يحصل عليه من مكاسب نتيجة لعدوانيته.

ولقد حدث عكس ذلك. فلم تكن دولة "الصرب" التي تمَّ عزلها بمقاطعة فعالة، ولكن كانت "البوسنة". وكانت المواعيد التي ارتبطت بها التهديدات بعيدة جداً، مما أعطى إشارة غير مباشرة إلى "بلغراد" إلى أنه ليس هناك ما يجب القلق من أجله في هذه الحالة. ولو أن هناك جهة واحدة أعيقت عن التقدم، فقد كانت "الدول الأوربية"، ضحايا "الإعاقة الذاتية" ذاتها. فبدلاً من وضع بعض الشكوك في أذهان "الجنرالات" من العسكر

الصرب، فقد طمأن "الخبراء" العسكريون الغربيون، مرة بعد مرة، وبشكل يومي تقريباً معلنين أن الحل العسكري في البلقان "غيرُ ممكن"، أو أنه "مُكْلِفٌ جداً"، وغير مُجْدٍ.

وبناء على هذه الخلفية، فقد بدتْ المساعدات الإنسانية الغربية وكأنها "عذرٌ". كان "الغرب" يؤكد أن "البوسنويين" لم يكونوا "جائعين" عندما يذبحون بشكل جماعي. وكما وصف أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي هذه العمليات: "لو كان "البوسنيون" "حيتاناً"، لكانت جماعة "السلام الأخضر" و"الصندوق العالمي للحياة الفطرية" إلى جانبهم ليؤيدونهم ويؤازرون حقوقهم!".

كيف يمكن تفسير هذا الفشل الذريع في الرأي العام؟ لماذا لم تكن هناك دعوة عامة ضد فشل الحكومات أن تقوم بواجباتها؟ ويمكنني أن أفكر بتفسيرين مترابطين منطقياً. أما الأول فمستنتجٌ من الحقيقة القائلة إن الفشل في استنتاج نتائج عملية من الرؤية الصحيحة هو أحد الأعراض النموذجية للتحلل الأخلاقي. ترى، هل وصل التدهور الأخلاقي في الغرب إلى مرحلة تقول إن أي تضحية دون الحصول على مكسب مادي لا يمكن قبولها ودعمها على الإطلاق في مجتمع مادي بحت يعتمد المتعة واللذة في الحياة فقط؟ لقد كان المسلمون يشكون فقط بأن الغرب في الحقيقة قد تمَّ صرفه تماماً عن "النصرانية"، إلا أنهم الآن يعتقدون حقيقة هذا الأمر.

وأما التفسير الثاني فهو متعلق مباشرة بالحقيقة المرة: إن الضحايا كانوا مسلمين. وكما يعتقد كثير من المراقبين الغربيين، فإنني أنا شخصياً مقتنع قناعة تامة أن دول حلف شمال الأطلسي كان بمقدورها أن تتدخل فوراً، وبشكلٍ حاسم، لو أن "الصرب" كانوا مسلمين، وكان "البوسنويون" من "الكاثوليك" أو "يهود". (وبالطبع، يمكن أن يكون الأمر أسهل لو أنه، بالإضافة إلى هذا، كان هناك حقول نفط وغاز طبيعي في

البوسنة والهرسك). وبالطبع، فمن الصعوبة بمكان أن يعترف أي واحد بذلك، إلا أن الأمر مقنَّعٌ بقناعٍ بمنتهى الهشاشة: إن كثيراً من الساسة الأوربيين سيشعرون بعدم الرضى والراحة والاطمئنان أن تكون هناك دولة "إسلامية" في "وسط" القارة الأوربية. ولا داعي لمثل هذا القلق: لقد ضمنت اتفاقية "دايتون" لي في أوهايو - الولايات المتحدة الأمريكية] ألا يصبح هذا الأمر حقيقة [مهما كان الثمن].

أجل، لقد كان الضحايا البوسنويون أول الضحايا في أوربا، إلا أنهم لن يكونوا "الأخيرين" لحملةِ كراهيةٍ، ونشرِ إعلام خاطئ، وتشويه سمعةٍ تنتشر تدريجياً ضد كل ما هو "إسلامي". إن ما يراه الإعلاميون من مكاتبهم يمكن أن يكون "حقيقةً داميةً" على الشوارع والطرقات.

إلا أن الأضرار أيضاً قد وقعت على الجانب الآخر من التقسيم الحضاري. ترى ما هي المضاعفات التي ستحدث في العالم الإسلامي على المدى الطويل للسخرية التي ستتطور هناك عن الأسلوب الغربي لـ: "حقوق الإنسان" و"الديموقراطية"؟ إن كثيراً من الشباب المسلم في العالم العربي عامة، وفي فلسطين خاصة، يستطيعون أن يروا بوضوح "الكيل بمكيالين" في السياسة الغربية الخارجية، وأخيراً وليس آخراً، ماذا حدث للديموقراطية في "هيتي"، مقارنة مع ما حدث في "الجزائر".

إن هذه التطورات هي عكس ما يراد منها لمد الجسور وبنائها ولجعل صدام الحضارات يبدو وكأنه نبوءة ذاتية الحقيق.

إنه لأمرٌ مخجل!

ميونيخ - ٢٢ تموز/يوليو ١٩٩٣

احتفلنا اليوم بالذكرى العشرين لتأسيس مسجد ميونيخ - فيرمان، والذي كان روحه الحقيقية أحمد فون دينفر *Ahmad von Denffer*. قراءة من القرآن الكريم، وذكريات وتأملات تاريخية، وبرقيات تهنئة، وكلمات.

كانت إحدى المداخلات هي التي قدمها ممثل الكنيسة [البروتستانتية] اللوثرية، المستشار الأعلى كلاوتيك *Klautke* والتي هزت مشاعر الجميع. فقد قال: "إنني أشعر وأنا بينكم في هذا المسجد وكأنني بين أهلي وإخواني تماماً لأنني أرى أن المرء في هذه البيئة قادر بشكل طبيعي أن يتحدث عن "الله". وأما في كنيستي، فإنني، في بعض الأوقات، أشعر بأن الناس يخجلون حتى من الإشارة إليه، وكأنه أمر مخجل لهم".

فإذا بلغ الأمر في الحقيقة إلى هذا الحد، بحيث لا يكون "النصراني" أكثر من "شعور إنساني"، فإن "الإسلام" بارتباطاته الشفافة السليمة، هو في الحقيقة "البديل الوحيد" لإعادة بناء القيم الروحية لأوربا.

كيف يمكن أن تكون سياسياً على صواب؟

فرانكفورت. ١٥ تشرين أول/أكتوبر ١٩٩٥

لقد أصبح واضحاً للعيان تماماً الآن أن سلمان رشدي يمكنه أن ينشر ما يشاء. إن انتقاده "ممنوع" بل "محظور". ومن ناحية أخرى، فإن أي شخص قد يكتب عن الإسلام بدرجة ملحوظة من التعاطف قد يجد نفسه في خطر.

هذا ما علمته خلال هذا الخريف آنميري شايميل *Annemarie Schimmel* الخبيرة الألمانية الدولية الشهيرة في العالم عن "الصوفية"، بعد فترة قصيرة من ترشيحها للجائزة السنوية المرموقة لاتحاد بائعي الكتب الألمان. فقد اعترفت، عندما انهالت عليها وسائل الإعلام، ودون أدنى حد من التعليل لفتوى الخميني الشهيرة ضد سلمان رشدي، أنها شخصياً قد تأثرت وتألمت، مثلما حدث لملايين المسلمين، بالعبارات "الكفرية" الجائرة التي احتوتها "الآيات الشيطانية" - كتاب سلمان رشدي - .

وهذا كان السبب. فبعد أن كانت الكاتبة موضوعاً هاماً للإعلام، فقد أصبحت الآن "الضحية المستهدفة" له. فقد بحث الإعلام في كتبها، التي تجاوزت العشرات، عن آرائها "المخالفة" لهم، والتي عبثاً حاول الإعلاميون [الجائرون] أن يجدوا لها أثراً. ولعل المأخذ الوحيد الذي حُمِل على هذه الأستاذة البروفيسورة للدراسات الإسلامية (في كل من هارفارد وبون) هو أنها تابعت أبحاثها الإسلامية بتعاطف معها، وليس بكراهية لها واشمئزاز منها.

وقد حاولت، كما حاول غير من أصدقاء الأستاذة شايميل، أن أقنعها ألا تنسحب، وإلا فسيكون الضرر الذي يلحق بالإسلام بالغاً جداً ولا يمكن تقديره. وقد شاركنا في هذا الرأي أيضاً الرئيس الألماني رومان هيرزوج *Roman Herzog*. فعندما أعلن أنه سيقدم الجائزة لها شخصياً، كما كان مخططاً لذلك، فقد حسم الأمر تماماً.

وقد نقلت الإذاعة والتلفاز اليوم حفل تسليم الرئيس الألماني رومان هيرزوج الجائزة إلى الأستاذة شايميل. وقد قال كل منهما في كلمتيهما أشياء رائعة جداً عن الإسلام كدينٍ وحضارة، وحذَّروا من مخاطر أن تصبح "العلمانية" معتقداً دينياً لا تسامح فيه، وبهذا يستخدم سلاح "الصواب السياسي" ببراعة تامة.

هذه معركةٌ فاز فيها وكسبها "الإسلام"، وفازت فيها "حرية الكلمة".

حوارٌ أم مواجهة

القاهرة ٢٤ ـ ٢٧ تموز/يوليو ١٩٩٦

إنني أشارك هذا العام في المؤتمر العالمي للمجلس الأعلى الإسلامي في مصر، كما هي الحال في عامي ١٩٩٣ و١٩٩٥. إلا أنني لم أعد أمثل نفسي فقط، بل إنني أمثل المجلس المركزي لمسلمي ألمانيا *(ZMD)*، الذي تمَّ إنشاؤه عام ١٩٩٥، والذي نأمل أن يكون منظمة للإسلام في بلدي، تعمل كمظلة حقيقية أصيلة له. ويشارك هذا العام، المستشار السابق هيلموت شميت *Helmut Schmitt*، معترفاً بأن الرئيس الراحل أنور السادات هو الذي عرَّفه على ما يتمتع به الإسلام من قوة وجمال، وذلك أثناء رحلة على نهر النيل.

ومع ذلك، فحتى دون حضور نجوم الحكمة (بما فيهم بابا الأقباط، شنودة الثاني)، فقد كان المؤتمر يستحق الحضور، حتى ولو كان للتعرف على الكثير من المسلمين الذين جاؤوا من أنحاء المعمورة لحضوره والمشاركة فيه. فعلى سبيل المثال، فضيلة الشيخ صبري كوتشي *Sabri Kotchi* من ألبانيا، والذي قضى سبعة وعشرين عاماً في سجون الشيوعيين بسبب إسلامه، أو المفتي يعقوب أفندي سلونيك *Yakub Efendi Slunic* من سراييفو الذي يشعُّ منه النور والبركات، أو كثير غيرهم من المسلمين من كوريا والصين والأرجنتين والبرازيل وموسكو وكييف وألما آتا، ولاغوس، ونيروبي، وغيرهم...

وبالطبع، تنعدم إمكانية التبادلات المفيدة حول طاولة المؤتمر مع كل مشارك من هؤلاء المشاركين الكثيرين. (ولهذا السبب بالذات، فإنني من

ناحية محتوى المؤتمر ومن أجل الأبحاث التي تقدم فيه، أفضل المؤتمرات الصغيرة، كالمؤتمر الذي يعقد في الأكاديمية الملكية الأردنية في عمان كل سنتين).

ويبدو لي أن هناك أمراً نموذجياً تقليدياً في المؤتمرات الإسلامية من الرباط إلى الرياض: إنها تميل إلى توحيد جهود الممثلين الراهنين، سواء أكانوا الممثلين الرسميين للحكومات، أو "العلماء". ومع ذلك، فلن يعني الكثير أن نناقش الحاجة إلى الحوار والتسامح، سواء أكنا نعالج العلاقات بين دول "شمال الكرة الأرضية وجنوبها"، أو حالة الدول الإسلامية، في غياب الذين يَتَحَدَّوْنَ الحالة الراهنة على أنها غير عادلة، ولا ديموقراطية، وغير إسلامية؟ وبالطبع أيضاً فمن الأسهل دائماً أن يتحدث المرء عن "مناوئيه"، بدلاً من أن يتحدث "معهم". ومع كل هذا، فلا تخلو هذه الطريقة من استمرار الخوف والإحباط، وكذلك لا بد من الحفاظ على الأمن من قبل قوات الشرطة، بدلاً من ضمانها بالموافقة والقبول.

قدَّمَ الرئيس حسني مبارك، أثناء الاحتفال الرسمي في ذكرى المولد للأستاذة آنميري شايميل، ولي شخصياً، "وسام النيل" من الدرجة الأولى، اعترافاً بالجهود التي نبذلها في إحياء الإسلام. وإننا نفسر هذا التزيين [التكريم] على أنه "إيماءة" ضد الدوائر المحاربة للإسلام في أوربا.

ما بعد مالكوم إكس...

رحلة لوفتهانزا من مطار دولوس إلى فرانكفورت. ٢٧ أيار/مايو ١٩٩٧

للسنة التالية على التوالي أزور الولايات المتحدة الأمريكية لإلقاء جولة من المحاضرات فيها. وفي السنة الماضية، فيما عدا منطقة واشنطن، شاركت بشكل رئيس في المؤتمر السنوي العام المؤثر للجالية الإسلامية في أمريكا الشمالية *ISNA* (كولومبوس، أوهايو، ٣٠ آب/أغسطس - ٢ أيلول/سبتمبر). وأما في هذا العام، فقد كانت الجولة من الساحل إلى الساحل، وقد رعى هذه الجولة مجلس "سانتا كلارا" و"واشنطن" عن العلاقات الأمريكية - الإسلامية *(CAIR)*، وهي منظمة فعالة ومكرسة لخدمة الحقوق المدنية.

وإنك أن ترى المسلمين يعملون في واشنطن ذاتها: مجلس المسلمين الأمريكيين *American Muslim Council (AMC)*، المعهد العالمي للفكر الإسلامي في هيرندون بولاية فيرجينيا، ومدرسة الدراسات العليا للعلوم الإسلامية والدراسات الاجتماعية التابعة له في ليزبيرغ بولاية فيرجينيا، ومعهد العلوم الإسلامية والعربية في فيرفاكس بولاية فيرجينيا، فهذا أمرٌ، إلا أنك إن تَرَ "الإسلام الأمريكي في المحافظات [والمدن]، فهذا، دون شك، أمر آخر مختلفٌ تماماً عن الأول. وقد شاهدت الحياة الإسلامية في سانتا كلارا في آناهايم، ولوس آنجلوس بكاليفورنيا، وفينيكي - أريزونا، وديترويت - ميتشيغن، وشيكاغو، وملواكي، ولانسينغ، وباتيرسون، ونيوجيرسي، فقد زادني هذا الأمر تفاؤلاً على ما كنت عليه من قبل.

وبصورة إجمالية، فإنني عندما أقارن بين الإسلام في أوربا وما أراه في أمريكا، فإنني أرى ست نقاط اختلاف وتباين جوهرية تفضّل التطور الإسلامي في أمريكا على نظيره في أوربا، وهي كما يلي:

بما أن هناك عدداً كبيراً من أبناء الجالية الإسلامية "غير المهاجرين" [المحليين من سكان البلاد الأصليين] في الولايات المتحدة الأمريكية، فلا يستطيع أحد أن يقول للمسلمين الأفرو - أمريكيين [الزنوج/الأمريكيين السود]، مثلاً، "لماذا لا تعودون إلى المكان الذي أتيتم منه؟" كما هو حال المسلمين الأجانب في أوربا، حيث يقال لهم هذا غالباً.

ليست هناك فئة عرقية مسيطرة، علماً بأن هناك الكثيرين من المسلمين المهاجرين في الولايات المتحدة الأمريكية (ما عدا ما نراه في ديربورن حيث هناك كثافة عالية من المسلمين اللبنانيين من الشيعة). وأما في أوربا، فعلى خلاف ذلك، فإن غالبية المسلمين في فرنسا مثلاً هم من شمال إفريقية، وأما في المملكة المتحدة فهم من شبه القارة الهندية، وأما في ألمانيا فهم من الأتراك. وبالتالي، فإن المشهد الأمريكي هو أقل تأثراً بالتمييز العرقي، أو الخوف من الانغماس الحضاري.

إن كثيراً من المسلمين الأمريكيين وأولادهم متعلمون، ويحصلون على مستويات دخل جيدة، وهم مواطنون محترمون، بينما نلاحظ في أوربا أن غالبية المسلمين المهاجرين يدخلون البلاد على أنهم "عمال"، وهم عمال غير مؤهلين وليسوا ذوي كفاءات مهنية عالية.

لقد كانت أمريكا دائماً متعددة الأديان، وأما أوربا فليست كذلك.

يعاني الأوربيون من الذكريات الجماعية التي تعود جذورها إلى الحروب الصليبية والحملات العثمانية على أوربا الوسطى. وكذلك، فإن أوربا تقع على حدود الدول الإسلامية: فإلى جنوبها تقع شمال إفريقيا، وإلى

شرقها تركيا وآسيا الوسطى. وإن هذا يسبب قلقاً ومخاوف متبادلةً من قبل الطرفين لا يعاني منه الفرد الأمريكي العادي.

إن معظم المسلمين الأمريكيين هم مواطنون أمريكيون، وهذا خلاف ما عليه الحال في أوربا، ولا يمكن أن يحصل المسلم على التأكيد اللازم دون الحصول على جنسية، اللهم إلا بصعوبة بالغة.

ولا بد لي أن أضيف هنا نقطة أخرى: إن المسلمين الأمريكيين هم "أمريكيون"، وهذا يعني بالتالي أنهم "حركيون" ونشطون، ومبتكرون مبدعون، وملمون بالتقنية، وجريئون مقدامون، ومنظمون بشكل جيد، كما هي حال الأمريكيين بشكل عام.

وبالطبع، ليس كل شيء هناك جميل ووردي. إنني لست قلقاً بشأن جماعة "أمة الإسلام" المهرطقة *Nation of Islam*، إذ إن كثيراً من الأعضاء السابقين لجماعة المسلمين السود، بما فيهم محمد عليّ [الملاكم]، ومالكوم إكس، رأوا "النور" [الإسلام الحقيقي] أخيراً، وباعتقادي أن الآخرين سيفعلون ذلك أيضاً. كما أن الإسلام الذي يتبع السنة والجماعة سينتشر بين الأمريكيين ـ الأفارقة، عاجلاً أم آجلاً. وما يقلقني أكثر من ذلك كله فقدان التكامل بين جاليات البيض والسود على مستوى المسجد. فإذا استمر هذا بين أبناء الجيل الثالث من المهاجرين فهذا نذيرٌ بوجود خللٍ في البنية الهيكلية، دون شك.

وأخيراً، فلا بد أن يواجه الأمريكان المسلمون "الخصم اللدود" الهائل: الإعلام الصهيوني القوي البارع المهارة، وجماعات الضغط، اللذين ليسا بمثل هذا التأثير والوجود في أوربا. وطالما أن "اللوبي الصهيوني" يستمر في اعتقاده أن إسرائيل هي "أحسن" حالاً كلما ازداد فشل الإسلام وإخفاقه، وإن معركتنا ستكون "شاقة"، إلا أنه يمكن تحقيق النصر حتى في المعارك "الشاقة".